في
الضرورة الشعرية

د .سهام كاظم النجم

الضرورة الشعرية من الموضوعات الجديرة بالبحث لمن يريد ان يتصدى لنظم الشعر بوصفها العلامة البارزة والعنصر الاساس بين الشاعر واللغة فكانت ميداناً خصباً لنظرات النحويين وتعليلاتهم فكانوا اكثر احتفالاً بضرائر الشعر فأخذوا يرصدونها ويُعنون بكل ما تظهره الشواهد منها . واذا كان محتماً على الشاعر ان يعرف القيودَ اللغوية والنحويةَ التي يسلك من خلالها الى البناء الصحيح والسليم ، فمن حقّه في مقابل ذلك ان يتعرف الى ما تتيحه له اللغة من المسالك الفرعية التي يميل بها عن أصولها الى معنى محدّد يبتغيه أو صياغة يستهدفها ضمن البناء الشعريّ ، وما يتميز به من الوزن والقافية من دون ان يُعدّ مغمزاً او شبهةً أو إخلالاً. حين يكون ذلك بدافعٍ من الضرورة وبشافعٍ منها [1].

تعريف الضرورة لغةً : الضرورة في اللغة : الحاجة .

وآضطُرَّ الى الشيء اي أُلجِئ اليه [2].

وأمّا في اصطلاح العلماء ففيها آراء :

اولاً : رأي الجمهور : وهو ان الضرورة ما وقع في الشعر مخالفاً للقياس

---

١ في الضرورات الشعرية ، د. خليل بنيّان الحسون ، ٥.

٢ مختار الصحاح ، الرازي ، ٣٧٩ .

مما لا يقع له نظير في النثر سواء أكان للشاعر عنه مندوحةٌ ام لا .[1]

ثانياً : رأي سيبويه وتابعه ابن مالك وهو : انه ما ليس للشاعر عنه مندوحة[2] ، اما الرأي الثاني فقد بسط الردّ عليه الشاطبي في شرحه لألفية ابن مالك من وجوهٍ :

اولها : إجماع النحاة على عدم الاعتداد بهذا المنزع وعلى اهماله يقولُ ابو حيّان : ولا يعني النحويون بالضرورة انه لا مندوحة عن النطق بهذا اللفظ . والا كان لا يوجد ضرورة . لانه ما من لفظ أو ضرورة إلاّ ويمكن أزالتها ونظم تركيب آخر غير ذلك التركيب ، وانما يعنون بالضرورة ان ذلك من تراكيبهم الواقعة في الشعر المختصة به (٥) .

والبغدادي في الخزانة قد نبّه في أكثر من موضع الى ان الراجح قول الجمهور في الضرورة : انها ما وقع في الشعر من دون النثر . سواء اكان للشاعر عنه مندوحة ام لا [3] ، وايضاً فأنَّ الضرورة عند النحاة ليس معناها انه يمتنع في هذا الموضع غير ما ذكر إذْ ما من ضرورة الا ويمكن ان يعوّض من لفظها غيره . ولا ينكر هنا الا جاحد لضرورة العقل ، فانه ليس من المستحيل أو من الصعب ان توضع كلمة مكان أخرى بوزنها أو معناها فتزيل الضرورة وهذا الصنيع اسهل مما فعله واصل ابن عطاء مثلاً في تركه الراء في كلامه وهي من حروف الذلاقة التي لا تخلو منها جملة حتى قال فيه :

ويجعـل البرَّ قمحاً في تكلّمـه

وجانب الرّاءَ حتّى احتال للشعـر [4]

ولا مرية في انّ اجتناب الضرورة الشعرية اسهل من ترك واصل للرّاء في

---

١ الضرائر ، الآلوسي ، ٦ .

٢ نفسه ، ٦ .

٣ خزانة الادب ، ١ / ٢٢ ، ٢ / ٤٠٥ ، ٣ / ٥٣٥ ، ٥٧٥

٤ امالي المرتضى ، ١ / ١٣٩ .

كلامه جملة ، واذا وصل الامر الى هنا الحدّ ادّى الى ان لا ضرورة في شعر عربي وذلك خلاف الاجماع ، وانما معنى الضّرورة عندهم ان الشاعر ربّما لا يخطر بباله عند النطق الا لفظه بعينها فزاد او نقص او غير ذلك بحيث قد يتنبّه غيره الى ان يحتال في شيء يزيل تلك الضرورة . [١]

ان ما رآه الجمهور احقّ بالاتباع . لأنّ هنا هو الانسب في الشعر فالبغدادي يقول: 'ان الشعر محل الضرورة'[٢] وقال ابن عصفور: 'الشعر نفسه ضرورة'[٣]، ولا يخفى ما للوزن والقافية من الميزة في الشعر وبسببهما تحدث الضرورة لانهما نظام موسيقي [٤] وابن جني يقول : ' القوافي حوافر الشعر '[٥].

وعلى هذا فالتعريف اللغوي يحتّم ان تكون الضرورة لحاجةٍ لا يمكن دفْعُها ، واما التعريف الاصطلاحي : فقد تكون فيه الضرورة لحاجةٍ وقد تكون لغيرها . ولعلّ ما يوضح الفرق بين المذهبين السابقين قول أبي الخرق الطهوي : يقول الخنى وابغضُ العُجْمِ ناطقــاً الى ربِّنــا صَوْتُ الحمارِ اليُجــَدّعُ [٦]

ادخل ' ال ' على الفعل المضارع في الشعر ولم يرد في النثر . فعند الجمهور هو ضرورة وعند ابن مالك ومن يتبعه هو ' قليل ' وليس بضرورة لأنه يمكن حذف ' ال' فيقول ' يُجدّع ' من دون ان ينكسر البيت [٧] ومما يؤيدّ وروده في الشعر مما لم يرد له نظير في النثر ايضاً هو تمسك المبّرد في جواز ' جرّ ' حتى ' الضمير يقول الشاعر :

---

١ خزانة الادب ، ١ / ١٥ .

٢ خزانة الادب ، ١ / ٥٣٣ .

٣ ضرائر الشعر ، ابن عصفور ، ٧٨ .

٤ من اسرار اللغة ، ابراهيم أنيس ، ٢٤٥ .

٥ الخصائص ، ١ / ٢٣٣ .

٦ خزانة الادب ، ١ / ١٤ .

٧ نفسه ،١/ ١٤ ، وينظر الضرائر ، للآلوسي ، ٦ .

فـلا واللّه لا يلفــاه نـــــاسٌ فتى حتـــّاك يا ابن ابـي زيـــادٍ

اعترض عليه الرضي بأنه شاذ[1] . فقال البغدادي : الأحسن ان يقول ضرورة فانه لم يرد في كلامٍ منثورٍ [2] .

منشـــأ الضـــرورة :

من المعلوم ان للشعر نظاماً يتمثّل في الوزن والقافية والشاعر يود ان يمنح ألفاظه قَدْراً وافياً من المعاني ، فيعمد إلى نظامٍ خاص في ترتيب الالفاظ وتنسيقها ، وهو في النظم لا يفكر في قيود اللغة إلا بقدر ما تخدم أغراضه الفنية . وفي تلك الحال يميل عن تلك الأصول أو الخصائص في تغيير صورة اللفظة حذفاً او زيادةً ، تقديماً او تأخيراً . وعندما يشيع هذا التغيير ويكثر دورانه في اساليب الشعراء يصبح حالةً خاصةً بإسلوب الأشعار ، فلا يرى اللغوي حينئذٍ مناصاً من النصّ به ومما يؤكد هذا ما نقله ' الرضي ' عن الأخفش قال :

' قال الأخفش : ان صرف ما لا ينصرف مطلقاً .. لغة الشعراء ، وذلك انهم كانوا يضطرون كثيراً لإقامة الوزن الى صرف ما لا ينصرف فتمرن على ذلك السنتهم فصار الامر الى ان صرفوه في الاختيار أيضاً . وعليه حُمِل قوله تعالى : ' سلاسلاً ، واغلالاً ' و ' قواريراً ' [3].

ويقول د . ابراهيم انيس عن منشأ الضرورة في اسلوب تهكّميّ لأنه ينكر على العلماء القول بالضرورة : ' وقد خطرت فكرة الضرورة الشعرية باذهان اولئك النحاة الاوّل الذين وجدوا بعض الشواهد لا تنطبق على قواعدهم واصولهم ففسروها على ان الناظم قد اضطر اليها اضطراراً لسلوك هذا الشطط

---

١ شرح الكافية ، للرضي ، ٢ / ٣٠٣ .

٢ خزانة الادب ، ٤ / ١٤١ .

٣ شرح الكافية ، الرضي ، ١ / ٣٣ و ٣٤ .

خضوعاً للوزن الشعري والقوافي الشعرية [1].

أنواعـــها بالنسبـة للوزن و القافيـــة

تنقسم الضرورة من هذه الجهة الى انواع :

اولها : نوع اذا أزيلت الضرورة منه أختلّ الوزن ومثال ذلك قول الكميت :

خريـعٌ دوادِي في ملْعَـــبٍ تَأَزَّرَّ طـوراً وتُلقـي الأزارا [2]

قال سيبويه : ' اضطرّ فاخرجه كما ظَنّنوا'[3] ، فلو أزيلت هذه الضرورة ورجع ' دوادي ' الى القياس فقيل : دَوادٍ لانكسر البيت : لانك كنت تجعل فعولن في حشو البيت فَعْلُن وهنا لا يجوز ' [4] . والمبرّد يقول : ' ان الشاعر اذا اضطرّ ردَّ الاشياء الى اصولها ' [5] .

وثانيهما : نوع اذا ازيلت منه الضرورة وسير على القياس لأختلت القافية ومثال ذلك قول امرىء القيس :

فيا لـك من ليـلٍ كأنّ نجومَـه بكل مُغارِ الفَتْـل شُدَّتْ بيَذْبُـلِ [6]

فقد جرَّ ' ينبلْ ' بالكسر وهو علم ' على وزن الفعل وكان قياسه المنع من الصرف والجرّ بالفتحة ، ولو أجراه الشاعر على القياس فقال : بينبلَ – بفتح اللام – لأختلت القافية لان قوافي القصيدة كلّها مكسورة [7] .

وثالثها : نوع اذا أزيل سبب الضرورة منه لم يختل وزن ولا قافية ، انما

---

١ من اسرار اللغة ، د . ابراهيم انيس ، ٢٥٢ .

٢ الخصائص ، ابن جني ، ١ / ٣٣٤ .

٣ الكتاب ، سيبويه ، ٢ / ٦٠ .

٤ المنصف ، ابن جني ، ٢ / ٨٠ ، والخصائص ، ١ / ٣٣٤

٥ المقتضب ، المبّرد ، ١ / ١٤٤ .

٦ شرح العلقات السبع ، الزوزني ٢٧ .

٧ شرح الكافية ، الرضي ، ١ / ٢٠٠ ، الخزانة ، البغدادي ، ١ / ٥٥٩.

الاهتمام بالمعنى اكثر من اللفظ كقول الشاعر :

كمْ بجودٍ مُقرفٍ نال العلا بخلُهُ قد وضعه [1]

فصل بين ' كم ' و' ما' اضيفت اليه ' بالمجرور ، والفصل بينهما من قبيل ما يختص بجوازه الشعر مع انه لم يضطر الى ذلك ، اذ يزول عن الفصل بينهما برفع مقرف او نصبه [2] وهنا يناقض الغرض الذي اراده الشاعر وهو تكثير من رفعتهم ، وهممهم ، وجود هم الى المعالي ، اذن عناية الشاعر على تأدية المعنى [3] بدقة هو الذي جعله يخالف القياس .

تقسيمها الى كثيرة وقليلة

لم تكن الضرائر على جنسٍ واحدٍ بل كانت مختلفة فمنها ما يكون سهلاً ميسوراً غير بعيد من المألوف والشائع من كلام العرب ، واكثر ما يكون بالرجوع الى الأصل . والى هذا النوع ذهب سيبويه بقوله :

' واعلم ان الشعراء اذا اضطروا الى ما يجتمع اهل الحجاز وغيرهم على أدغامه أجروه على الاصل ، قال الشاعر (قعنب بن ام صاحب) :

مهلاً أعادِلَ قد جرّبت من خلقي أنّي اجودُ لأقوامٍ وان ظننوا

وهذا النحو في الشعر كثير ' [4]

وقد ذكر المبرد في اكثر من موضع من المقتضب ان الضرورة تكون بالرجوع الى الاصل [5] . ومما ذكره قوله عن حذف المد الذي ينشأ من اشباع (ها) الضمير فيقول : ' واعلم انّ الشعراء يضطرون فيحذفون هذه الياء او الواو

---

١ المقتضب ، ٣ / ٦١ .

٢ ضرائر الشعر ، ابن عصفور ، ١٣ .

٣ ينظر الضرائر ، للآلوسي ، ٧ .

٤ الكتاب ، سيبويه ، ٢ / ١٦١ .

٥ المقتضب ، ١٠١/١ ، ١٣٩،١٤١ ، ٢٥٠ ، ١٩٩/٢، ٣٥٤/٣

ويبقون الحركة ، لانها ليست باصل كما يحذفون سائر الزوائد وهذا كثير في الشعر ومن ذلك قول الشاعر :

فإنْ يكُ غَثّاً او سميناً فإنني جعلُ عَينيه لنفسهِ مَقْنَعا [1]

يريد لنفسه : فحذف الياء واجتزأ بالكسرة [2]

وللشعراء اذا اضطروا مراجعة الاصول يقول ابن يعيش : الاصل في قولك الزيدان : زيد وزيد ، والذي يدلّ على ذلك ان الشاعر : اذا اضطرّ عاود الاصل نحو قوله :

كأنَّ بين فكّها والفك فأرة مسك ذبحت في سكّ

اراد بين فكيّها فلما لم يتّزن له رجع الى العطف وهو كثير في الشعر [3]

وإما الحديث عن الضرورة القليلة فيوضحها قول الرضي :

ويجوز قليلاً في الشعر اعتبار الشرط والغاء القسم مع تصدره كقول الاعشى :

لئنْ منيتَ بنا عن غبّ معركة لا تلفنا من دماء القومِ ننتقل [4]

فقال : لا تلفْنا جازماً الفعل والاجدر ان يرفعه لتقدم القسم .

تقسيمها الى حسنة والى قبيحة

ليس هناك ضرورة حسنة او قبيحة في ذاتها وانما في ما يحيط بها من الصياغة فالشاعر الخلاّق لا يسمح لقيود اللغة ان تطغى عليه وانما يتناول اللغة بحكمةٍ كي يفي بالاصول التي تطمح اليها الغاية الشعرية فاللغة هي المادة الاساسية التي يخلق منها الاديب فنّه . وتبعاً لقدرات الشاعر ما يستخدمه من

---

١ نفسه ، ١ / ٢٦٦ ، ٢٦٧ .

٢ الضرائر ، ابن عصفور ، ١٢٣ .

٣ شرح المفصل ، ابن يعيش ، ٤ / ١٣٨ ، ١٨٧ ، وينظر خزانة الادب ، ٣ / ٣٤٣ ، والامالي للشجري ، ١/ ١٠ – ١١ .

٤ شرح الكافية ، للرضي ٢ / ١٥٦ .

صياغة تقضي الى ضرورة مستاغة او حسنة غير مستهجنة ولا تستوحش منها النفس [١] كصرف ما لا ينصرف واسهل الضرورات هو تسكين عين (فَعْلَة) في الجمع .

١- صرف ما لا ينصرف : يقول سيبويه في تسويغ ذلك " واعلم انه يجوز في الشعر ما لا يجوز في الكلام من صرف ما لا ينصرف يشبهونه بما ينصرف من الاسماء ، لانهااسماء كما هي اسماء " [٢]

ويقول المبرد : " واعلم ان الشاعر اذا اضطر صرف ما لا ينصرف ، جاز له ذلك لانه انما يرد الاسماء الى إصولها " [٣] .

ومنه قول الشاعر :

فَلَتَأتينْكَ قصائدٌ ولْيَرْكَبَنْ اليك قوادِمُ الأكـــــوار

صرف قصائدٌ رداً الى الاصل [٤].

٢ . تسكين عين (فَعْلة) في الجمع : وبيان ذلك هو : " كا ما هو على وزن فَعْل بسكون العين وهو مؤنث بتاء مقدّر او ظاهر كدَعْد ، وجَفْنة ، فان كان صفة (كصعْبة) او مضاعفاً (كمدّة) او معتلّ العين (كبيضْة وجوْزة) وجب اسكان عينه في الجمع بالالف والتاء ، وان خلا من هذه الاشياء وجب فتح عينه فيه كتَمرات ، ودَعَدات، [٥] ويجوز ما استحق الفتح من عين فعَلات للضرورة كقول الشاعر :

رحلن لشقّة ونصبن نصبا لوغْرات الهواجر والسّمــوم [٦]

---

١ همع الهوامع ، ٢ / ١٥٦ .

٢ الكتاب ، سيبويه ، ١ / ٢٦ .

٣ المقتضب ، ٣ / ٣٥٤ .

٤ نفسه ، ١ / ١٤٣ .

٥ شرح الكافية ، الرضي ، ٢ / ١٧٦ .

٦ الضرائر ، للآلوسي ، ٢١ .

فسكّن عين ' وغْرات ' وكان قياسها الفتح .

واما الضرورة القبيحة او المستقبحة : فهي ما تستوحش منه النفس نتيجة لبعده الشاسع عن مألوف كلام العرب ، اما لثقله واما لأنبهامه انبهاماً مُخلاً بالتفاهم ومن الامثلة قول ابي الخرق :

يقول الخنا وابغضُ العُجْمِ ناطقــاً الى ربِّنــا صَوْتُ الحمارِ اليُجــدَّعُ [1]

وهنا شاذ قبيح لا يجيء الا في ضرورة الشعر [2] ، ويقول البغدادي نقلاً عن ابن السراج وهو من اقبح الضرورة وهو لا يجيء الا في كلمات نادرة جداً لا تكاد تذكر [3]

ومن هذا النوع ' هو وضع صيغة الامر موضع خبر ' كان ' وجعلها بدلاً منه نحو قوله :

وكوني بالمكــارم ذكريني ودلّي دلّ ماجــدةٍ صنَاعِ

فجعل ذكريني في موضع ' مذكرة ' وهو قبيح لان فعل الامر لا يقوم مقام الخبر في باب ' كان '[4].

ومن اقبح الضرائر : هو الزيادة المؤدية الى ما ليس له اصلاً كقول الشاعر :

واننّي حيثما يثني الهوى بصري سلكوا ادنو فانظــور [5]

اي انظر، ويستقبح النقص المجحف وهو حذف حرف او حرفين مما يؤدي الى استغلاق فهم المعنى × ومن هنا قول لبيد :

---

١ خزانة الادب ، ١ / ١٤ .

٢ شرح الكافية ، ١ / ١١ .

٣ خزانة الادب ، ١ / ١٤ .

٤ الضرائر ، ابن عصفور، ٢٥٨ ، ٢٥٩ .

٥ خزانة الادب ، البغدادي ، ٤ / ٥٧ .

(×) اوضح المسالك ، ابن هشام ، ٣ / ٩٣ .

درس المَنـا بمُتـالعٍ فأبـان فتقادمـتْ بالحبـس والسوبـانِ [1]

اراد : المنازل .

وقمة الضرورة المستقبحة العدول عن صيغة الى أخرى كقول الحطيئة :

فيها الرّمـاح وفيها كـلّ سابغـة جَدْلاءَ مُحكمَـةٍ من نسـجِ سـلاّم [2]

اي سليمان .

اذ لا ينبغي للشعراء الاخذ بامثال هذه الضرورات لقبحها . لان بتر اللفظ على هذا النحو يمسح صورته المألوفة والتوسع فيه يؤدي الى الاختلال واختلاط الصيغ فضلاً عن عـدم وضوح القصد [3] . فقد عدّها سيبويه من حذف ما لا يحذف [4] وحكم عليها ابن جني بما هو اشد من القبح بقوله: " فهنا لعمري تحريف بتعجرفٍ عارٍ من الصنعة " [5] .

موقف النحويين من الضرورة الشعرية

كان النحويون اكثر من غيرهم اهتماماً في الاستقصاء والبحث " فيقفون ازاء الابيات التي اشتملت على ما خالف أقيستهم ومذاهبهم فيعمدون الى التأويل او التعليل لأدخالها في ضمن اقيسة اللغة ، ومن اجل هنا كانت الابيات التي حرفتها الضرورة عن القياس اللغوي المألوف ميداناً فسيحاً لنظر النحاة وتأويلهم وتعليلهم " [6] .

يفصح ابن جني عن موقف النحاة بقوله : " واعلم ان الشاعر اذا اضطر

---

١ الخصائص ، ابن جني ، ١ / ٨١ .

٢ الضرائر ، الآلوسي ، ٣٢ .

٣ فن الضرورات الشعرية ، د. خليل بنيان ، ٦ – ٧ .

٤ الكتاب ، ١ / ١٣ .

٥ الخصائص ، ١ / ٢٨٢ وينظر ، ١ / ٢٨٠ ، ١ / ٢٨١ .

٦ في الضرورات الشعرية ، د.خليل بنيان ، ٧.

جاز له ان ينطق بما يبيحه القياس وان لم يرد به سماع ، الا ترى الى قول ابي الاسود :

ليت شعري عن خليلـي ما الذي غاله في الحـبّ حتى وَدَعَـهْ [1]

يريد ' ودع ' بمعنى ترك فالمستعمل منه المضارع والامر من دون الماضي فيبيح موقف النحويين للشاعر ان يعمد الى ما نبذته اللغة من ابنيتها فيضمنه شعره عند الاضطرار . لان ' الشعر موضع اضطرار وموقف اعتذار وكثيراً ما يحرّف فيه الكلم عن ابنيته وتحال فيه المثل عن اوضاعٍ لأجله '[2]، ويمكن الاستشهاد بقول الخليل في هذه المسألة بقوله :

' الشعراء أُمراء الكلام يصرّفونه أنّى شاؤا وجائز لهم ما لا يجوز لغيرهم ... '[3].

وكان سيبويه يبيح للضرورة ان تخرج على ما اصله وما استقرّ من احكام اللغة اذا كان المسوغ لها جريانها على نظائر سائرة على وفق القياس فضلاً عن اتضاح الدلالة من خلال مخالفتها للقياس ([4]) وقد افصح عن الاساس الاول في افراده للضرورة بباب اما يحتمل من الشعر، قال فيه :

' اعلم انه يجوز في الشعر ما لايجوز في الكلام من صرف ما لاينصرف يشبهونه بما ينصرف ... وحذف ما لا يحذف يشبهونه بما قد حذف واستعمل محذوفاً '([5]) ، والاساس الثاني الذي اقره سيبويه وهو وضوح الدلالة يلاحظ في سياق هنا الباب بقولـه : ' ويحتملون قبح الكلام حتى يضعوه في غير

---

١ الخصائص ، ١ / ٣٩٦ .

٢ م . ن ، ٣ / ١٨٨ .

٣ منهاج البلغاء ، ١٤٣ – ١٤٤ .

٤ في الضرورات الشعرية ، ٩ .

٥ الكتاب ، ١ / ٢٦ .

موضعه لانه مستقيم ليس فيه نقص [1] واما موقف المبرد في هذه المسألة فيتضح من خلال قوله : " ان الضرورة لا تجوّز اللحن " [2] فان الضرورة جائزة ما دامت لا تنقص اصلاً مهماً ولا قاعدةً تصل الكلام الى اللحن المؤدي الى القبح في التركيب .

ويرى ابن فارس اللغوي " ان الضرورة ضرب من الخطأ ومجانبة الصواب لان الشعراء عنده يخطؤن كما يخطيء الناس قال : ما جعل الله الشعراء معصومين يوقون الخطأ والغلط" [3] ، ولذلك رأى ان كلام النحويين في هذا الباب انما هو ضرب من التوجيه لخطأ الشعراء وتكلف التأويلات لاغلاطهم قال : " لا معنى لقولٍ من يقول : ان للشاعر عند الضرورة ان يأتي في شعره بما لا يجوز ... " [4] .

فظاهر انه لم ينتبه لفكرة الاصول التي قامت عليها فلسفة البحث في الضرورة الشعرية وتوجّه عليها كلام النحاة فدخل عليه ان بحث النحويين في هذا الباب ضرب من التوجيه لخطأ الشعر والتكلف لاخراج كلامهم على وجه من العربية [5] او انه تأثر بما نقله عنه السيوطي قال : " وذمّة ابن فارس مطلقاً ، فقال : ما رأينا اميراً او ذا شوكةٍ اكرم شاعراً على ارتكاب ضرورة . فأما ان يأتي بشعر سالم او لا يعمل شيئاً " [6] .

يبدو ان ابن فارس اطلق الحكم مطلقاً من دون ان يفرّق بين نوع الضرورة وان المدح تجارةٌ فالشاعر تجاهها يعرّض المعاني الثرة الى جانب قليل من اللفظ

---

١ الكتاب ، ١ / ٣١ .

٢ المقتضب ، ٢ / ٣٥٩ .

٣ الصاحبي ، ٢٣١ .

٤ نفسه ، ٢٣١ .

٥ الضرورة الشعرية ، السيد ابراهيم ، ٢٩ .

٦ همع الهوامع ، ٢ / ١٥٦ .

في اطار الوزن والقافية فيعطى له الحق في الخروج عن المألوف بحدٍ لا يخرج فيه عن الفصاحة والسيوطي يؤيّد هذا بقوله : لا يخرج عن الفصاحة الا ما استوحش [1] فأما ما لا تستوحش منه النفس كصرف ما لا ينصرف وكل ما كانت الضرورة فيه رجوعاً الى الاصل لا يخرج عن الفصاحة .

وممن لا يتقبّل الضرورة ابو هلال العسكري فيقول : وانما استعملها القدماء في اشعارهم لعدم علمهم بقباحتها ولأن بعضهم كان صاحب بداية ، والبداية مزلة [2] .

اذا كانت الضرائر حسنة سائغة ولم يلحن قائلها فهي مقبولة ولابن جني تعليق مناسب على ارتكاب الضرورة ، وان ارتكابها لا يدل على ضعف الشاعر وقصوره بل يدلّ على شدة وثوقه بنفسه وقوّة طبعه ، وكأنه لأنسه بعلم غرضه ، وسفور مراده لم يرتكب صعباً وسواء وافق بذلك قابلاً له ام صادف غير آنس به الا انه قد استرسل واثقاً وبنى الامر على ان ليس ملتبساً [3] .

اهـــم الاسس التي تقوم عليها الضـــرورات

ان اقامة الضرورات على اسس منه الحذف والتغيير والزيادة وقد جعل ابن عصفور هذه الاسس في ضرائره اربعة منحصرة في الزيادة ، والنقص ، والتأخير، والبدل .[4]

وقد نبه الى الاسس الثلاثة (الحذف، الزيادة، والتغيير) حمزة الاصفهاني في كتابه التنبيه على حدوث التصحيف اذ يقول : انهم وجدوا اللغة العربية على الضد من سائر لغات الامم ، لما يتولد فيها مرة بعد آخرى ، وان المولد لها قرائح

---

١ همع الهوامع ، ٢ / ١٥٦ .

٢ الصناعتين ، ١١٢ .

٣ الخصائص ، ابن جني ، ٣٩٢/٢ ، ٣٩٣ .

٤ الضرائر ، ابن عصفور ، ١٧ .

الشعراء الذين هم امراء الكلام بالضرورات التي تمر بهم في المضايق التي يدفعون اليها عند حصر المعاني الكثيرة في بيوت ضيقة المساحة والاحراج الذي يلحقهم عند اقامة القوافي التي لا محيد لهم عن تنسيق الحروف المتشابهة في اواخرها ، فلا بد من ان يدفعهم استيفاء حقوق الصنعة الى عسف اللغة بفنون الحيلة ، فمرة يعسفونها بازالة امثلة الاسماء والافعال عما جاءت عليه من الحيلة لما يدخلون من الحذف او الزيادة فيها ، ومرة بتوليد الالفاظ على حسب ما تسمو اليه هممهم عند قرض الاشعار[1].

وهناك كثير من الظواهر النحوية التي عوملت على انها من قبيل ضرورة الشعر نحو صرف ما لا ينصرف ، والفصل بين المتلازمين والتصرف بالاعلام وجعل جواب الشرط مع المتقدم للقسم وهناك كثير من الضرورات التي ضمتها كتب النحويين .

١- ترك صرف المتصرف : هذه الضرورة فيها خلاف بين النحاة ، فالبصريون ينكرونها والكوفيون يرتضونها ، ومما يسوغ اليها كثرة الشواهد المعتبرة التي وردت فيها ، وقد مال ابن الانباري في الانصاف الى مذهب الكوفيين في هذه المسألة .

ومن امثلته قول حسان بن ثابت :

نصـروا نبيَّهـم وشـدوا ازره بحنين يوم تـواكل الابطـالِ [2]

ولم يصرف حنيناً

وقول العباس بن مرداس :

فما كان حصـن ولا حابـس يفوقـان مرداس في مجمـع [3]

فلم يصرف مرداساً

---

١ التنبيه على حدوث التصحيف ، ١٥٧ – ١٥٨ .

٢ الانصاف ، الانباري ، ٢٩١/٢ .

٣ نفسه ، ٢ / ٢٩٢ .

اما ما استدلوا به من جهة القياس فهو قولهم : ' واما من جهة القياس فأنّه اذا جاز حذف الواو المتحركة للضرورة نحو قوله :

فَبَيْنَـاه يشري رحلـه قال قائـلٌ لمن جَمَلٌ رخو الملاط نجيـبُ [1]

فلأن يجوز حذف التنوين للضرورة كان ذلك من طريق الاولى وهذا لان الواو من (هو) متحركة والتنوين ساكن ولا خلاف ان حذف الحرف الساكن اسهل من حذف الحرف المتحرك كان ذلك من طريق الاولى ' [2]

ولئن كان سيبويه يسوغ صرف غير المتصرف يحمله على المتصرف فلماذا لا يؤخذ هنا الحمل بنظر الاعتبار في عدم صرف المتصرف . فيحمل الفرع على الاصل كما يحمل الاصل على الفرع .

واحتجّ البصريون على ما ادعوه بان ذلك خروج عن الاصل بخلاف صرف ما ينصرف فانه رجوع الى الاصل فاحتمل في الضرورة .

الفصـــل بيـــن المتلازميـــــن

ويدخل في ضرورات التغيير الفصل بين المتلازمين ، ومنه الفصل بين الفعل وما اختصت بملازمته ، والفصل بين المضاف والمضاف اليه وبين الموصول وصلته والفصل بين حرف التنبيه وما يقترن به ، والفصل بين العدد وتمييزه وغيرها كثير ومن الامثلة على ذلك قول جرير:

فقدْ والشـكُّ بيّـنَ لي عَنـاءٌ بَوشْكِ فراقِهـم صُـرَدٌ يصيـح [3]

اراد : فقد بيّن لي صُرد يصيح بوشكِ فراقهم والشكُّ عنا .

وفي الفصل بين سوف والفعل كقول الشاعر :

---

١ الخصائص ، ابن جني ، ١ / ٦٩ .

٢ الانصاف ، الانباري ، ٢ / ٢٩٦ .

٣ الخصائص ، ابن جني ، ١ / ٣٣٠ .

عليك سلام بَعْدَ – سوف – سلامها تمُرّ سنون بعدها وشهورُ (١)

يريد : بعد سلامها سوف تمر سنون وشهور بعدها ، ففصل بين ' سوف ' والفعل بمخفوض ' بعد ' وفصل بين ' بعد ' ومخفوضها بـ ' سوف ' .

ومن الفصل بين المتلازمين الفصل بين المضاف والمضاف اليه ، وقد عدّه ابن عصفور من الضرائر الحسنة بقوله : ' والفصل بين المضاف والمضاف اليه بالظرف والمجرور من الضرائر الحسنة ومثلها في الحسن الفصل بينهما بالمعطوف على الاسم المضاف مع حرف عطف ' [٢] نحو قول الفرزدق :

يا من رأى عارضاً أُسَرُّ بـه بين ذِراعيْ وجبهـةِ الأسـدِ [٣]

يريد : بين ذراعي الاسد وجبهته ، فقدم المعطوف وحرف العطف وفصل بهما بين المضاف والمضاف اليه ، وحذف الضمير لفهم المعنى اختصاراً .

العطـف على الضميـــر المتصـــل

بشأن هذه المسألة خلاف بين النحاة ، فالكوفيون يجيزون العطف على الضمير المستتر او المتصل ، سواء أكان مرفوعاً محلاً ام مجروراً محلاً، نحو: قمت وزيدٌ ، او قام وزيد او مررت بك وزيد . والبصريون لا يجيزون إلا على قبح في ضرورة الشعر ، واشترطوا توكيد الضمير قبل العطف عليه اذا كان مرفوعاً محلاً ، كما يشترطون إعادة الخافض عند العطف على المجرور محلاً فيقال : قمت انا وزيدٌ . او قام هو وزيد ، او مررت بك وبزيد . وان ما ذهب اليه الكوفيون لا يجوز عندهم لأنه يكون بمنزلة عطف اسم على فعل او عطف اسم على حرف ([٤]) . ومن الامثلة العطف على الضمير المرفوع محلاً قول عمر

---

١ الضرائر ، ابن عصفور ، ٢٠٢ .

٢ ضرائر الشعر ، ابن عصفور ، ١٩٤ .

٣ المقتضب ، المبرد ، ٤/ ٢٢٨ .

٤ الانصاف ، الانباري ، ٢ / ٢٧٢ – ٢٨٠ .

بن ابي ربيعة :

قلتُ إذا أقبلـت وزهـرٌ تهادى كنعـاج الملا تحسّـفن رملا (١)

إذ عطف ' زهر ' على الضمير المستتر في قوله ' اقبلت ' والاجدر عند البصريين ان يقول : اقبلت هي وزهرٌ ليكون عطف اسم على اسم .

وقد جوّز سيبويه العطف على الضمير المرفوع محلاً او المجرور محلاً في ضرورة الشعر بقوله: 'وقد يجوز في الشعر ان تشرك بين الظاهر والمضمر على المرفوع والمجرور اذا اضطر الشاعر ' (٢) .

ومن قول المتنبي في هذا المجال :

مضى وبَنُوهُ وآنْفردْتَ بفضْلِهـم وَأَلْفٌ إذا ما جُمِّعَـتْ واحدٌ فَـرْدُ (٣)

فعطف ' بنوه ' على الضمير المستتر في مضى المرفوع محلاً .

التصـــــــرف في العلـــــــم

ومن الضرورات الحسنة التصرّف في بنية العلم بتغيير عن صورته الاصلية، حين لا تنسجم مع النظم ، ويكون ذلك بتغيير الحركة في بعض حروفه . او حذف بعضها او تقديم بعضها على بعض او ايراده مثنى او مجموعاً .

ومن الامثلة على هذا النوع قول ذي الرّمة :

عَشيـةَ فـرَّ الحارثيون بعـدما قضى نَحْبَه في مُلتقـى القوم هَوْبـر(٤)

يريد : ابن هوبر فوضع اباه موضعه .

وقول البَعيث يخاطب جريراً :

أبـوك عطاءٌ ألأم النـاس كلهـم فقبحـت من نسـلٍ وقبح من كهـل (٥)

---

١ نفسه ، ٢ / ٢٧٩ .

٢ الكتاب ، ١ / ٣٢ .

٣ شرح ديوان المتنبي ، البرقوقي ، ٢ / ١٠٠ .

٤ الضرائر ، ابن عصفور ، ١٦٧ .

٥ الخصائص ، ابن جني ، ٢ / ٤٣٧ ، ٣ / ١٨٨ .

يريد : اباه عطيه ، فاشتق منه ' عطاء ' وجعله اباً له .

ومن صوره ايضاً جمعه وهو مفرد كقول عبيد بن الابرص :

اقفرَ من اهله مَلحوبُ فلقَطبيَّات فالذَّنوب [1]

ففي الخصائص ' وانما القطيبة ماء واحد معروف ' [2]

الجزم بـ (إذا) ' وحكمها في الكلام ان لا تجزم ، الا انها شبهت في الكلام للاضطرار بـ ' متى ' من حيث كانت مثلها ، ظرف زمان وفي كل واحدٍ منها معنى الشرط ، فحكم لها من اجل ذلك بحكم ' متى ' بدلاً من حكمها ، فجزم بها كما يجزم بـ ' متى ' نحو :

اذا لم تزَلْ في كلِّ دارٍ عرفتَها واكفٌ من دمعٍ عينيك يَسْجُمِ

فـ ' لم يزل ' في موضع جزم بـ ' اذا ' ، بدليل جزم جوابها ، وهو يسجم ' [3] .

ومن هنا يبدو ان الضرورة الشعرية ' من حيث هي مظهر من مظاهر الخروج على الاستعمال العادي للغة ، ليست الا تعبيراً عن الارادة الشعرية الخلاّقة التي تتجلى بها الخصائص الفردية للأديب ' [4] وقدرته في استنفاذ طاقات اللغة بما فيها او بكل ما يتيحه القانون اللغوي الى استشراف عوالم واسعة جديدة بعيدة عن الضيِّق والجمود اللغويّين، ومن هذا المعنى ' تصبح الضرورة اثراً ايجابياً للعلاقة الحيّة بين العمل الادبي والتراث وفيها يظهر التعامل الذكيّ والتناول الخلاّق لمكنونات التراث الباطنة ' [5] .

---

١ العمدة ، ابن رشيق ، ١ / ٤١٩ .

٢ الخصائص ، ابن جني ، ٢ / ٤١٩ .

٣ الضرائر ، ابن عصفور ، ٢٩٨ .

٤ الضرورة الشعرية ، السيد ابراهيم ، ١٢٧ .

٥ نفسه ، ٩ .

فهرس المصادر والمراجع

١. الامالي الشعرية ، ابن الشجري ، حيدر اباد ، ط ١ ، ١٣٤٩ .

٢. أمالي المرتضى غرر الفوائد ودرر القلائد – للشريف المرتضى ، دار احياء الكتب العربية ، ط ١ ، ١٩٥٤ .

٣. الانصاف في مسائل الخلاف – لابن البركات الانباري ، ط ٤ ، مط السعادة ، ١٩٦١ .

٤. اوضح المسالك الى الفية ابن مالك – ابن هشام ، تح محمد محي الدين عبد الحميد ، مط السعادة، ط ٣ ، ١٩٤٩ .

٥. التنبيه على حدوث التصحيف – حمزة الاصفهاني ، ب ث . و ب م .

٦. خزانة الادب – عبد القادر البغدادي ، مصورة – اصدرتها دار الثقافة ،بيروت .

٧. الخصائص – ابن جني – تح محمد علي النجّار ، مط دار الكتب ، ١٩٥٢ .

٨. شرح ديوان المتنبي – عبد الرحمن البرقوقي ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، ١٩٧٩.

٩. شرح الكافية – للرضي ، المطبعة العامرة المحمية ، ١٣٧٥ هـ .

١٠. شرح المعلقات السبع ، للزوزني ، مط مصطفى الحلبي ، ط ٢، ١٩٥٠.

١١. شرح المفصل لابن يعيش ، ادارة الطباعة المنيرية .

١٢. الصاحبي في فقه اللغة وفن العرب في كلامها – لاحمد بن فارس،المكتبة السلفية ، ١٩١٠ .

١٣. الصناعتين – ابو هلال العسكري ، مط محمود بك، الاستانة،١٣١٩هـ .

١٤. ضرائر الشعر – ابن عصفور ، تح السيد ابراهيم محمد،دار الاندلس، بيروت، ط ٢ ، ١٩٨٢ .

١٥. الضرائر وما يسوغ للشاعر دون الناثر ، محمود شكري الآلوسي ، شرح محمد بهجة الاثري ، المطبعة السلفية بمصر ، ١٣٤١ هـ .

١٦.الضرورة الشعرية ، السيد ابراهيم محمد ، دار الاندلس ،ط١ ،١٩٧٩.

١٧.العمدة : ابن رشيق القيراوني ، تح محمد محي الدين عبد الحميد ، دار الجيل، لبنان ، ط ٤ ، ١٩٧٢ .

١٨.في الضرورات الشعرية ، د . خليل بنيان الحسون ، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ،بيروت ، ط ١ ، ١٩٨٣ .

١٩.كتاب سيبويه ، سيبويه ، مط الاميرية بولاق مصر – ط ١ ، ١٣١٧ هـ.

٢٠.المحتسب في تبيين شواذ القراءة والإيضاح عنها ، ابن جني ، تح د.عبد

٢١.الحليم النجار وآخرين ، المجلس الاعلى للشؤون الاسلامية ، ١٣٨٦ هـ .

٢٢.مختار الصحاح ، الرازي ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، ١٩٨١ .

٢٣.المقتضب،المبرد،تح محمد عبد الخالق عضيمة – المجلس الاعلى للشؤون الاسلامية .

٢٤.من اسرار اللغة ، د. ابراهيم انيس ، مط لجنة البيان،الانجلو،١٩١٥ .

٢٥.المنصف ، ابن جني ، تح ابراهيم مصطفى وعبد الله امين ، مط

٢٦.مصطفى الحلبي ، ١٩٦٠ .

٢٧.منهاج البلغاء ، حازم القرطاجنّي . ب ث . و ب م .

٢٨.همع الهوامع ، السيوطي ، مط السعادة ، ط ١ ، ١٣٢٧ هـ .